المبحث الأول

آراء الفرق الإسلامية الرئيسية
الجبرية .. المعتزلة .. الأشاعرة

منذ البداية، يجب أن نعرف الآراء الأولى فى الإسلام، التى ظهرت بصدد هذه المشكلة. وهى آراء الفرق الرئيسية الإسلامية المشهورة: الجبرية .. المعتزلة .. الأشاعرة. هذا بالإضافة إلى رأى مذهب السلف، الذى يتخلّل هذا المؤلف كلـه ..

أولا: فرقة الجبرية:

بدأت تظهر آراء هذه الفرقة وأفكارها، فى عصر الصحابة؛ بل كانت تجرى على ألسنة المشركين قبل ذلك. ولكن يمكن التأكيد بأن القَوْل بالجبر، شاع فى أول العصر الأموى، وكَثُرَ حتى صار مذهبًا فى آخرة [1]. وهذه الفرقة، ذات رأى حادّ وغريب جدا فى مشكلة القضاء والقدر. ولا يُعرفُ بدقَّة، ما إذا كان لرأيهم هذا، جانب سياسى، أم لا. وعلى العموم، فهذا هو رأيهم الذى أعلنوه، وتمسَّكوا به والذى سنعرضه فيما يلى:

إن الجبر فى الاصطلاح الفنى فى علم الكلام؛ «هو نَفْى الفعل حقيقةً عن الإنسان وإضافته إلى الله تعالى [2]. وعلى ذلك فإن الجبرية يُنكرون الإختيار؛ ومن هنا فإنهم، «لا يفرقون بين الإنسان والجماد من حيث إنه مُجبر على

---

(١) عن: د. محمد أبو زهرة - تاريخ المذاهب الإسلامية - ج١ ص ١٢٢ - ١٢٣ القاهرة.

(٢) د. على سامى النشار - نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام - جـ ١ ص ٢٧١ القاهرة ١٩٦٦

أفعاله »[1]. أى أنه لا فعل للعبد أصلاً؛ « وحركاته بمنزلة حركة الجمادات ولا قدرة للعبد عليها ولا قَصْدَ ولا اختيار »[2]. فالحركة والاختيار والقدرة، كلها من الله تعالى، بطريقة مباشرة، وليس للعبد فيها أى تَدَخُّل.

يقول جهم بن صفوان، وهو على رأس هذه الفرقة: « إن الإنسان لا يقدر على شئ ولا يوصَفُ بالاستطاعة، وإنما هو مجبور فى أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار. وإنما يخلق الله الأفعال فيه كما يخلق سائر الجمادات. وتُنسبُ إليه الأفعال مجازاً كما تُنسبُ للجمادات. والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر »[3].

ويقول البغدادى، إن جهماً - زعيم فرقة الجبرية - قال: « لا فعل ولا عمل لأحد غير الله »[4].

واستمراراً فى غلُّوهم هذا، فإنهم يَنْفُونَ الإرادة الإنسانية بتاتاً؛ فلا إرادة إلاَّ إرادة الله وحده. ويقول القاضى عبد الجبار المعتزلى، وهو فى مجال نقد فرقة الجبرية: « قالت المجُبرة فى الإرادة إنها من صفات الذات، وأنه تعالى لم يزلْ مريداً لكل ما يكون من فعله وفعل غيره »[5].

هذا هو رأى الجبرية، الذى نرى فيه كثيراً من الأفكار التى لا يقبلها العقل - فهم يسوُّون بين حركة الإنسان وحركة الجمادات، كالشجر والحجر والرمال. ولا نعلم .. هل هذا غلوٌّ منهم فى تقديس الله سبحانه وتعالى؛ أم أنه اتجاه

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية - مجلد ٦ - عدد ٧ - مادة الجبرية - ص ٢٨٢.

(٢) التفتازانى - شرح العقائد النسفية ص ٢٥٣ - المطبعة الأزهرية طبعة أولى - سنة ١٩١٣م.

(٣) نقلا عن: الشهرستانى الملل والنحل نشرة محمد سيد الكيلانى طبعة القاهرة مصطفى البابى الحلبى - جـ ١ ص ٨٧ سنة ١٩٦١م.

(٤) البغدادى الفرْق بين الفرق القاهرة - ص ١٣٨.

(٥) القاضى عبد الجبار المعتزلى - المغنى فى أبواب التوحيد والعدل المجلد السادس (الإراده) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ص ٦٥

سياسى خطير ومُخرِّب، يدعو إلى التواكُل وانفراط عِقْد الأمَّة، وضياعها . .؟ فما دام الله هو الفاعل وهو المريد . وأن الإنسان مُجبَر فى كل تحركاته وتصرفاته؛ فإنه ليس محاسبًا على أفعاله . فَلْيَفعل إذًا كل ما يحلو له فى هذه الدنيا، ويهيم مع رغباته . . وبعد كل هذا، فَلْيكُنْ ما يكون؛ فالفعل ليس فعله أصلاً .

ثانيا : فرقة المعتزلة :

هذه الفرقة، مشهورة باستخدام العقل فى توضيح أمور الدين ورأيها فى هذه المشكلة، مضادّ لرأى فرقة الجبرية تمامًا .

فالمعتزلة يقولون : « إن الله تعالى ليس خالقًا لأفعال العبد »(١) . وهذا يعنى أن الإنسان هو الذى يخلق أفعاله . فأفعاله الاختيارية تتم، سواء « بالقدرة الحادثة فقط مباشرة أو تولدًا »(٢) . أى أن الأفعال تتم بقدرة الإنسان مباشرة؛ أو عن طريق آلة – مثلاً – يحركها الإنسان .

وهناك طريقان سلكهما المعتزلة لتأييد ما ذهبوا إليه . طريق يستند إلى الشَّرْع، وطريق يستند إلى العقل . الطريق الأول . . وهو الطريق الشرعى : « يستند أساسًا فيما يبدو على فكرة الثواب والعقاب فإنهم يَرَوْنَ أن العبد مُثاب على فعله، مُعاقَبٌ ملوم محمود . وهذا إن دلَّ على شئ، فإنما يدل على أن فعله واقع منه . إذْ لا يحسُن توبيخه والثناء عليه بما لا يقع منه كألوانه وأجسامه »(٣) .

وفى هذا الطريق الشرعى يستشهد المعتزلة ببعض الآيات . قال تعالى : ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [النحل : ١١٨] ﴿ **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ** ﴾ [الروم : ٩] وقال : ﴿ **لا ظُلْمَ الْيَوْمَ . . .** ﴾ [غافر : ١٧]

---

(١) فخر الدين الرازى اعتقاد فرق المسلمين ص ٣٨ – مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .

(٢) السنوسى المقدمة فى أصول الدين ص ٥٩ نشرة لو سيانى بالجزائر سنة ١٩٠٨ .

(٣) الجوينى - الإرشاد - تحقيق د . محمد يوسف موسى - مكتبة الخانجى - ص ٢٠٨ القاهرة - سنة ١٩٥٠ .

وهذه الآيات تدل على أن الله سبحانه سيُعطى كل إنسان، جزاء عمله، ولن يظلمه شيئا مما اكتسبه. أى أن الجزء يتوقف على العمل، الذى فعله الإنسان بإرادته واختياره.

أما الطريق الثاني عند المعتزلة، وهو الطريق العقلى، فقد قالوا: «إن العاقل يميز بين مقدوره وبين ما ليس بمقدوره. ويدرك تفرقةً بين حركاته الإراديَّة، وألوانه التى لا اقتدار له عليها. ووجه الفصل بين القبيلَيْن، أنه يصادف مقدوره واقعا به على حسب مقصوده ودواعيه. ولا يقع منه مالا يقع على حسب انكفافه وانصرافه. فإذا صادف الشئ واقعًا على حسب المقصود والداعية.. لم يسترِبْ فى وقوعه به. ثم لا يقعُ به إلاَّ الحدوث فَلْيكن العبد محدثًا لفعله. ولو كان فعله غير واقع به، لكان بمثابة لونه وسائر صفاته الخارجة على مقدوراته»[1] فلَوْن الإنسان وطوله وقِصَرُه، وسائر صفاته، ليست من فعل الإنسان، بل وجدها دون تدخُّل منه.

من الفقرات السابقة، نرى أن المعتزلة يُبْدونَ آراء، تقترب من أن تكون معتدلة قائمة أساسًا على فكرة الثواب والعقاب؛ وإن لم يكن فيها الإيضاح الكافى، وعدم الرد على احبريين بطريقة عقلية – فيما يتعلق بفكرتهم عن أن الفاعل الوحيد هو الله، وأنه هو المُريد لكل شئ. وكذلك فإنهم لم يقوموا بالرد على الأشاعرة، ومناقشة آرائهم فى هذا الصدد – كما سنعرضها فيما بعد.

ثالثا: فرقة الأشاعرة:

عُرفَ عن الأشاعرة، أنهم دائمًا يتوسطون فى آرائهم بين الفرقتين الرئيسيتَيْن.. الجبرية والمعتزلة. لذا فإنهم قد «راموا أن يأتوا بقَوْلٍ وسط بين القولَين. فقالوا إن للإنسان كَسْبًا، وأن المكتسبَ به والكسب، مخلوقات لله تعالى»[2].

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٠٠، ٢٠١

(٢) ابن رشد – مناهج الأدلة ص ٢٢٤ القاهرة سنة ١٩٥٥.

وهنا نجد الأشاعرة، يحاولون الرجوع بفكرتهم إلى أهل السلف، مع إدخال ما سَمُّوه وعبَّروا عنه بالكسْب. فهم يقولون: «اتفق سلف الأمة قبل ظهور البدع والأهواء، واضطرب الآراء، على أن الخالق المبدع رب العالمين ولا خالق سواه، ولا مخترع إلاَّ هو. فهذا هو مذهب أهل الحق. فالحوادث كلها حدثت بقدرة الله تعالى. ولا فرق بين ما تعلَّقَتْ قدرة العَبْد به وبين ما تفرَّد الرب بالاقتدار عليه. ويخرج من مضمون هذا الأصل، أن كل مقدور لقادر .. فالله تعالى قادر عليه، وهو مخترعه ومنشؤه» (١).

إلاَّ أن هذه الصورة، التى تعرضها فرقة الأشاعرة، لتحديد أفعال الإنسان، توحى بأن الإنسان فيها؛ «مَجْبورٌ فى قالب مختار مجبور من حيث إنه لا أَثَرَ له ألبتَّة فى أثر ما عمومًا، وإنما هو وعاء وظرف للحوادث والأعراض. يخلق الله فيه ما شاء وكيف شاء. ومختار من حيث إن عادة [سنَّة] الله لَمَّا جَرَتْ معه بدوام موالاة الفِعْل عليه، لا سيَّما حال خَلْقه فيه كراهة للفعل. وإنما يمدُّه الله بالفعل فى بعض الأوقات على حسب الحاجات. وخصوصًا حال خلقه تعالى له عَزْمًا وتصميمًا على الفعل فى بعض الأوقات على حسب الحاجات. وخصوصًا حال خلقه تعالى له عَزْمًا وتصميمًا على الفعل .. صَارَ العبد بهذه العادة العجيبة، مُتمكنًا من الفعل والتَّرْك بحسب الظاهر. لا يُحِسُّ إلجاءً إلى ما يجب فعله، ولا إكراهًا على ما يكره وجوده» (٢).

وبناء على التحليل السابق، الذى انتقد فيه المفكر الإسلامى «السنوسى» رأى الأشاعرة؛ فإن العبد – فى رأى الأشاعرة، ليس مسئولاً، مسئولية كاملة، عن أعماله؛ لأن الله سبحانه، وضعها فيه، كما أنه فَعَلَها بإرادته (٣).

---

(١) الجوينى – الإرشاد – ص ١٨٧.

(٢) السنوسى – المقدمة فى أصول الدين – ص ٦٣ – ٦٥.

(٣) الفقرات السابقة، فى بيان موقف الفرق الإسلامية، من مشكلة القضاء والقدر؛ مقتبسة من كتاب: «تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية» للدكتور عاطف العراقى – دار المعارف بمصر طبعة أولى سنة ١٩٧٣.

وكما رأينا .. فإن الضعف يبدو واضحًا فى رأى الأشاعرة – وإن كانوا يقولون بفكرة الكسب فهم لم يوضحوا موقف العبد من الأعمال والحوادث التى تحدث منه، والتى قالوا عنها، إنها من إرادة الله وحده. وكذلك لم يتطرَّقوا إلى الإرادة الإنسانية وفاعليَّتَها فى اختيار الأفعال وتحقيقها فى الواقع. ولو أنهم اتجهوا إلى هذه النقطة، وحاولوا تفسيرها فى إطار مذهبهم، لكانَ من الممكن أن تكون آراؤهم مقبولة. ولكن هذا لم يحدث.

ومع ذلك، فإنه يبدو من آرائهم؛ الإخلاص فى الإيمان، والسَّعْى لتنزيه الله تعالى، بإثبات قدرته اللانهائية على كل شئ. إلاَّ أن ذلك كان يحتاج إلى الكثير من التوضيح والتفسير، لبيان مسئولية الإنسان، عن أفعاله الحرة.

هذه هى آراء الفرق الرئيسية، فى مشكلة القضاء والقدر. وهى لا تخلو من الثغرات والغرائب. ولن نقف طويلاً عندها؛ فَلْنتَّجه إذًا، إلى آراء الفلاسفة، لكى نرى كيف يُحلِّلون هذه المشكلة. وسوف نقتصرُ على دراسة رأى فيلسوفَيْن كبيرَيْن منهم؛ هما الغزالى .. وابن رشد. وذلك لشهرتهما الواسعة فى الشرق والغرب، بين المسلمين وغير المسلمين؛ ولأن لكل منهما اتجاه فكرى خاص يكاد يكون متعارضًا مع الآخر.

ثم بعد ذلك، نضع جميع الآراء، فى بوتقة الدين الإسلامى الحنيف، لكى نعرف الحقيقة، ونستنتج الرأى السليم، من خلاله.

* * *